

- الخير -

من أولى واجبات المرء على نفسه أن يحقق إنسانيته في ذاته ويرتقي بها للوصول إلى كمال نوعها، ويجسد جمال ذلك الكمال مسالك ووقائع بين ظهرائي الجماعة لأن الإنسان كائنٌ إجتماعيٌّ بالفطرة يعيش على أرض الواقع يفعل وينفعل يعلم ويتعلم وليس كائناً معلقاً في الهواء لا يجذب ولا ينجذب، لا يؤثر ولا يتأثر، لا يضر ولا ينفع.

وبين إنسان عمل جاهداً على مرآة جوهر نفسه حتى صقلها بالفضائل المعرفية والفضائل الخلقية فغدت جوهرأ صافياً قادراً أن يتقبل ويعكس أنوار الحقائق الإلهية والبدهييات المنطقية وصولاً إلى تلك اللمعات الصوفيّة التي تحدّث عنها أبو زيد البسطامي والجنيد والسهروردي. وبين الإنسان الذي أهمل مرآة جوهر نفسه حتى علاها الصدا فحجب الأضواء التي في داخلها ومنعها من تقبّل وعكس الأنوار المتدفقة عليها من الملاء الأعلى. فأصبحت مشلولةً فاقدة القوى في حكم اللاموجودة. بين هذا وذاك فرقٌ كبيرٌ هو الفرق بين الخير والشرّ، بين العدل والظلم، بين الجمال والقبح.

قال تعالى في كتابه العزيز: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. وهذا القول يدلّ أنّ الله الذي أعطى الإنسان العقل والحرية والقدرة على فعل الشيء أو ضده، حمّله مسؤولية إختياره الحرّ موضحاً له أنّ أعماله هي التي تتردّد إليه وذلك بعد أن هداه الله وأرشده وبيّن له أنّ سعادته هي في فعل الخير الصادر عنه وتعاسته هي في فعل الشرّ الذي جناه على نفسه. وأنّ الله عادلٌ ليس ظالماً لعباده. قال تعالى أيضاً في كتابه العزيز: ومن جاء بالحسنة فله خيرٌ منها. فالله دائماً يعين الإنسان على الخير إن هو أراد له لنفسه ولمجمعه وهو الذي قال لنا في وصف الحسنة: كحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة. فسبحان الله على كرمه اللامحدود كيف أنّ السيئة تعدّ سيئةً واحدةً لا غير والحسنة حالها كحال تلك الحبة من القمح. وقال تعالى أيضاً في كتابه العزيز: وما تفعلوا من خير فإن الله به

عليم. فعمل الخير لا يضيع أبداً لا في الحياة الدنيا ولا في الحياة الآخرة. فهو في الحياة الدنيا كما قال الشاعر:

ولم أرَ كالمعروف أمّا مذاقه فحلّو وأمّا وجهه فجميلٌ

وأما في الحياة الآخرة فهو روحٌ وريحانٌ وأما وجهه فجميلٌ.

أما النبيّ الكريم فقال: بادروا بالأعمال الصالحة لأنّ الإناء هو ما ينضح منه والشجرة هي ما تعطيه من ثمر. وقال أيضاً: إتقوا النار ولو بشقّ ثمرة.

أما الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعريّ فيقول بأنّ الخير ليس فروضاً وتكاليف وعيشٌ في البراري والصوامع.

وإنما هو ترك الشرّ مطرحاً وفضك الصدر من غلّ ومن حسد

فالخير برأي المعريّ هو احترام الناس ومحبتهم ومساعدتهم. هو تعليم الجاهل حتى يعلم، وإطعام الجائع حتى يشبع، وتقوية الضعيف حتى يقوى. إنه مجتمع التضامن والترابط والعدل وليس مجتمع الحقد والحسد والتعدي والجشع والإستقواء بالسلطة والمال واسترهان الناس واستعبادهم.

قال المعريّ أيضاً:

الخير يفعلُه الكريم بطبعه وإذا اللئيم سخا فذاك تكلفا

فالكريم يفعل الخير لأنّ الخير جميلٌ لذاته ففي فعله سعادته وتحقيق إنسانيته. أمّا اللئيم فيفعل الخير تكلفاً من أجل جاه أو سمعة أو يفعلُه مصيدةً للضعفاء لكي يسترهنهم ويستعبدهم بعطائه.

والخير إذا لم يكن له إلا مردودٌ واحدٌ هو السمعة الطيبة لكفاه ذلك :

عليك بفعل الخير لو لم يكن له من الفضل إلا حُسنه في المسامع

أمّا الأمير عبدالله التتوخي فيقول: إذا عملت خيراً فاستره وإذا نلت خيراً فانشره. وأمّا رأينا المتواضع في هذا الموضوع فهو أنّ الخير لا يمكن معرفة مكنوناته منفرداً إلا إذا ربطناه بالحقيقة والعدالة. لأنّ كلّ فضيلة خلفية يجب أن تكون مبنية على أساس فضيلة معرفية وإلا خبط المرء في تصرفاته خبط عشواء واختلطت الأمور في ذهنه. ولم يعرف حدود الأشياء ليقف عندها فكل عمل برأينا ينسجم مع منطق العقل وبديهياته يعتبر عملاً خيراً. وكلّ عمل يتناقض مع منطق العقل وبديهياته يعتبر عملاً شريراً حتى ولو نتج عنه بعض الخير عرضاً. فتفاضل الناس على بعضهم مثلاً بالمال والجاه والحسب وجمال الصورة وقوّة البدن لا يعتبر عملاً عادلاً. والعدل أن يتفاضل الناس على بعضهم بالعلم اليقيني والعمل الصالح. وكذلك المسؤول المستبد الذي يسلب الناس حرياتهم ويصادر لهم عقولهم هو مسؤولٌ ظالمٌ وشريير وإن صدر عنه بعض الخير عرضاً لبعض الناس. ولذلك نقول أنّ مقياس الخير هو العقل وأن لا شيء في الوجود خارج عن إحاطة جوهر العقل. ولهذا نقول يخطيء كل من يعتقد أنّ الخير في العظمة والرئاسة والمال والجاه ولكن العظمة هي في الخير والحقّ والعدل فطوبى لمن يكون عظيماً في تواضعه وبرودة حلمه وبهاء نوره وحرارة عقله المشتاق لمعانقة الحقيقة.

كمال يوسف سري الدين